أسلوب النداء في القرآن الكريم

د.حسن كريم حسين الشرع
كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة :

تناول البحث أسلوب النداء في القرآن الكريم ، إذ يعد أسلوب النداء واحداً من أساليب العربية المهمة ، ولما كان القرآن الكريم انعكاسا حياً للحياة العربية وبخاصة في اللغة ، لذا اشتهر وشاع أسلوب النداء في ثنايا الكتاب العزيز .

جاء النداء في القرآن الكريم بكل تفاصيله من نداء المفرد والجماعات والكنى والألقاب بما فيها المضاف وغير المضاف والشبيه بالمضاف فاستوعب هذا النداء أقوال النحاة وتفصيلاتهم وإن اختلفت أحكامهم في المنادى وناصبه وفي الحد والمحدود فيه ، فقد تناول البحث آراء النحاة في العامل بالمنادى ، وحاول البحث أن يرد بالحجة على من قال إن الأداة هي الناصبة ، وعلى القائلين بأن الناصب هو الفعل المقدر ونابت عنه أداة النداء ، ومنهم من قال نصب النداء على الظرفية وتعرض البحث لأسلوب الطلب وما يحتمل من إرادة الصدق والكذب ، فالنداء يوجب انتباه المنادى ليبلغ إرادة المنادي . وهنا نشأ اعتراض في نداء الأنبياء ونداء الرب الذي تكرر كثيراً ، فقد عالج البحث هذه المسائل بصبر الأولين الذين اعتمدوا واقع اللغة ، فوصفوها قبل أن يصدروا أحكامهم المعيارية .

***

لم يضع سيبويه ، حداً للنداء و لا للمنادى ، و إنّما اكتفى ببيان حكم المنادى مبتدئاً بالمضاف ، ثم المفرد ، و يريد به العلم و النكرة المقصودة إذ يقول((اعلَمْ أنّ النداء كلُّ اسمٍ مضافٍ فيهِ ، فهو نصبٌ على إضمارِ الفعلِ المتروكِ إظهاره ، والمفردُ رفعٌ و هو في موضع اسم منصوبٍ[1])) .

إنّك لتجد خلافاً ظاهراً بين الحد والمحدد ، فما أراد تحديده هو النداء و هو معنى ، وَحْدَهُ عِنْدَهُ ((كلَّ اسمٍ مضافٍ فيه فهو منصوبٌ)) و هو المنادى ، فكأنه قال : النداءُ هو المنادى المنصوب على إضمارِ فعلٍ ثم هو يَبْدأ المنادى المضاف مقدماً إياهُ على المبني ، والأشيعُ في النداء هو الأخيرُ منهما ، علماً أو نكرةً مقصودة، و يبدو أنّه أراد أنْ يبّينَ الأصلَ في إعرابِ المنادى و هذا ما يتضحُ في حال الإضافةِ ، و هو النصبُ في حين أنَّ المفردَ بصورتيهِ يبدو على خلاف الأصلِ في بنائهِ على الضمِّ .

و الخليل بن أحمد الفراهيدي يحمل النصبَ في المنادى على الظرف المنصوبِ في قولنا : هو قبلك و هو بَعْدَك ،ليَجعل المفردَ في بنائهِ على الضمِّ كالمقطوع عن الإضافةِ ، و جاء ذلك في قول سيبويهِ((و زعم الخليلُ رحمهُ اللهُ أنّهم نصبوا المضاف نحَو: يا عبدَ اللهِ و يا أخانا ... كما نصبوا هو قبلكَ و هو بعدَكَ ، و رفعوا المفردَ كما رفعوا قبلُ و بعدُ موضعهما واحدٌ ، و ذلك في قولك : يا زيدُ و يا عمروُ ، و تركوا التنوين في المفردِ كما تركوه في قبلُ))[2].

على ظاهر اللفظِ ، وهو ما يبتدى على اللفظِ في حال الإضافة من النصب إلى النداء ومن البناءِ في حال الإفرادِ ، لأنّ المبني على الضم في الحالين المنادى والظرف المقطوع عن الإضافة فهما مبنيان على الضم في محّل نصبٍ ، ولو تجاوزنا ذلك إلى حال المفردِ ، وقابلناهُ بحال الظرفِ فإنّنا لا نجدُ وجهاً من الشبهِ بينهما. فالعلم المفردُ ليس مقطوعاً عن الإضافة ، والإضافةُ ليست من لوازمهِ ، كذلك الشأن في النكرةِ المقصودةِ ، فإنّ افتراضَ القطعِ عن الإضافة فيهما بعيدٌ ، ولعلةٍ إنمَا أرادَ أنّنا لو أضفناهما في قولنا : يا محمدَنا ويا صاحبَنا نصباً ، ولو حذفنَا المضافَ إليهِ كان الحكمُ فيهما البناءَ على الضم ، فلا موجبَ إذنْ لقياس المنادى العلمِ والمنادى المضافِ على (قَبْلُك) و (بَعْدَكَ) سوى التشابهِ الظاهريّ في الحركةِ ، ولعل ما يُسوّغُهُ فضلاً عن ذلك هو قصدُ التعليمِ والتقريب على المتعلم .

والحق أنّ العلة التي أثبتها أبو العباس المبرد لتوجيه بناءِ المنادى العلم هي أحظى بالقبول ، وأرجحُ من تعليلِ الخليل ، فهو يقولُ ((فإذا كانَ المنادى واحداً مفرداً معرفة بني على الضمِّ ، ولم يلحقهُ تنوينُ وإنّما فُعِلَ ذلك بهِ لخروجهِ عن الباب، و مضارعته ما لا يكون معرباً وذلك أنّك إذا قلتَ: يا زيدُ ويا عمرُو فقد أخرجته من بابهِ ، و لأنّ حَدَّ الأسماءِ الظاهرةِ أنْ يخبر بها واحدٌ عن واحدٍ غائبٍ و المخبرُ عنه غيرُها ، فتقول: قالَ زيدٌ ، فزيدٌ غيرك ، و غيرُ المخاطب، و لا تقول : قالَ زيدٌ و أنت تعنيه ، أعني المخاطبَ، فلما قلت : يا زيدُ خاطبته بهذا الاسم فأدخلته في باب ما لا يكون إلا مبنياً ، نحو أنتَ و إيَّاكَ ، و التاء في قمتُ و الكاف في ضربتُكَ))(٣).

وعلى الرغم من أنّ النداءَ هَوُ من أساليبِ الطلبِ ، إذِ المُنادَى يتطلبُ انتباهَ المنادى وتوجهَهُ إليهِ ليبلغهُ ما يريدُ ، فإنّه قد يكونُ خبراً محتملاً للصدق و الكذبِ ، خلافاً لما ذهبَ إليهِ أبْن جني ،وذلكَ حينَ يكونُ المنادى صفةً من الصفاتِ ، كقولنا :يا فاسقُ ويا فاضلُ و يا طيبُ ويا خبيث (٤).

وَلَمْ يأتِ لفظُ الجلالةِ منادى بالأداة ، في القرآن الكريم و إنّما جاءَ في المواضعِ الخمسةِ التي نودي فيها ملحقاً بالميمِ التي يقولُ النحويونَ إنّها عوضٌ عنها ، و هي قَوْلُهُ تعالى ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤتي الملكَ مَنْ تشاءُ﴾ (٥)، و قوله تعالى﴿ قال عيسى ابنُ مريمَ اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَينا مائدةً مِنَ السماءِ﴾((٦)) ،و قولُهُ تعالى﴿ و إذ قالُوا اللهُمَّ إنْ كانَ هذا هُوَ الحقَّ من عندك فأمْطِرْ عَلَيْنَا حجارةً﴾(٧) ، و قولُهُ تعالى﴿ دعواهُمْ فيها سُبْحَانَكَ اللهُمَ و تَحيتُهُم فيها سَلاَمٌ﴾(٨) ، و قولُهُ تعالى﴿ قلِ اَللهُمَ فاطرَ السّمواتِ و الأرضِ﴾(٩).

و الجدير بالذكر هنا أن نذكر اختلاف النحاة في مسألة الاسم المنصوب الذي يردّ بعد (اللهم) فهل نصبه على إنه نعت لاللهم أم يكون منادى ثانياً حذفت منه أداة النداء ؟

سيبويه ينكر النعت بعد اللهم لأنّها لا ترد إلاّ في النداء ، و الميم المشدّد تمنع التبعية ؛ لذا جعل (مالكَ) و (فاطرَ) في الآيتين الواردتين في هذا البحث منادى ثانياً بعد اللهُمّ(١٠) .أمّا المبرد و غَيرُه من الكوفيين والبغداديين فلا يرون هَذا الرأي فالاسم الواقع بعد اللهمَ نعتاً لما سبقه(١١).

ما نوديَ من أسماءِ الأعلامِ في القرآن الكريم تسعة عشرَ اسماً(١٢) وهي : آدمُ في خمسة مواضعَ ، و إبراهيمُ في ثلاثةِ مواضعَ ، و ابليسُ في موضعين ، و داودُ في موضعٍ واحدٍ، و زكريا في موضعٍ واحدٍ ، و شعيبُ في ثلاثةِ مواضعَ ، و صالحُ في موضعين ، و عيسى في أربعةِ مواضعَ ، وفرعونُ في موضعين ، و لوطُ في موضعين ، و مالكُ في موضعٍ واحدٍ ، ومريمُ في خمسةِ مواضعَ ، و موسى في أربعةٍ و عشرين موضعاً ، و نوحُ في أربعةِ مواضعَ ، و هارونُ في موضعٍ واحدٍ ، وهامانُ في موضعين ، و هودُ في موضعٍ واحدٍ أيْضاً ، و يوسفُ في موضعين .

ومن ذُكرَ من الأنبياءِ في القرآن الكريم و لم ينادوا ، هم : سليمانُ و يعقوبُ و يونس، و من الجديرِ بالالتفاتِ في هذا السياق أنَّ النبيَ ﷺ هو النبيَّ الوحيدُ من بين الأنبياءِ المنادينَ في القرآن الكريم الذي لم يُنادَ بأسمهِ ؛ إنما نوديَ بصفتهِ ، فقد نودي بـ﴿ يا أيُّها النبيُ﴾ في خمسة عشرَ موضعاً ، كما نودي﴿ يا أيُّها الرسولُ﴾ في موضعين ، و بـ﴿ يا أيُّها المزملُ﴾ و بـ﴿ يا أيُّها المُدّثرُ﴾ كل منهما في وضعٍ واحدٍ .

وَ قَدْ ذكرَ اسمهُ ﷺ في خمسةِ مواضعَ في القرآن الكريم في غيرِ النداءِ . يضاف إلى هذه الأسماءِ التسعة عشرَ اسماً آخرَ و هو (آزرُ) في قوله تعالى ﴿ و إذْ قالَ إبراهيمُ لأبيهِ آزرَ أتَتَّخِذُ أصْناماً آلِهَةً﴾ (١٣)، و آزرَ مجرور هنا على البدليةِ من (أبيهِ) ، و قد قرئَ (آزرُ) بالضمِّ و هو محمول على النداءِ في هذه القراءة(١٤) .

ولم نورد (العزيزَ) بين الأعلامِ في هذا السياق ، وَ قَدْ نويَ في موضعين ، هما قوله تعالى ﴿ قالوا يا أيُّهَا العزيزُ إنَّ لَهُ أباً شَيْخاً كَبيراً﴾(١٥)و قوله تعالى ﴿ قالُوا يا أيُّهَا العزيزُ مَسّنَا و أهلَنَا الضّرُ ﴾ (١٦) ؛ لأنه وصفٌ لمجيئهِ تابعاً هنا ، و هو بمعنى الملك (مأخوذ من العزّ وهو الشدة

والقهرُ ، و سمي به لغلبته على أهلِ مملكتهِ ، و العزيزُ لقبٌ مَنْ ملكَ مصرَ مع الإسكندريةِ ، كما يقال نجاشي مِنْ ملكَ الحبشةِ ، و قيصر لمن ملكَ الروم). (١٧)

كما لم يذكر ذا القرنين ، و قد نودي في القرآن الكريم في موضعين لكونهِ وصفاً أو لقباً و إذا راجعنا المواضعَ التي نوديتْ فيها هذه الأسماء فإننا نستخلصُ منها الملاحظاتِ الآتيةِ :-

١- إنّ النبي موسى عليه السلام وردَ اسمهُ منادى في القرآن الكريم أكثرَ من غيرهِ من الأنبياء جميعاً ، فقد جاء (يا موسى) في أربعةٍ و عشرين موضعاً كما ذكرنا ، يضاف إليها موضعٌ واحدٌ جاء فيه منادى ضمناً ، إذ نودي بالفعل دون الأداةِ ، و هو قوله تعالى ﴿ و إذْ نادى رَبُّكَ موسى أن ائتِ القومَ الظّالمينَ ﴾ (١٨)

و قد رأينا أنّ الفعلَ (نادى) يقترن بأسلوبِ النداءِ بالأداةِ كما في قوله تعالى ﴿ وناديناه أنْ يا إبراهِيمُ ﴾(١٩)، و قوله تعالى﴿ و نادى نوحٌ ابنَهُ و كانَ في مَعْزِلٍ يا بُنَيّ أركَبْ مَّعَنَا﴾ (٢٠)، و قد لا يدلُ الفعلُ (نادى) على أسلوبِ النداءِ ، إذا كانَ دالاً على غيرِ هذا القصدِ ، كما في قوله تعالى ﴿ و إذا نَادَيْتُمْ إلا الصلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَ لَعِباً ﴾ (٢١)إذ لا يدل هنا على أسلوب النداءِ ؛ و إنّما يرادُ بهِ مجردَ الإعلان و الإعلام .

٢- اقترن الاسم المنادى بأداةِ النداءِ (يا) مع الأسماء جميعاً عدا يوسف ،فقد نودي في موضعين ، و جاء منها من دون أداة ،و هما قوله تعالى ﴿ يُوسُفُ أعْرِضْ عن هذا﴾ (٢٢) ،و قوله تعالى﴿ يُوسُفُ أيُّهَا الصدِّيقُ أفْتِنَا في سبعِ بقراتٍ سِمَانٍ﴾ (٢٣) و يلاحظ أيضاً أنّ يُوسُفَ لم يأتِ وَحْدَه مجرداً من حرفِ النداءِ ؛و إنّما جاءتْ(أيَّهَا) هنا مجردة منها أيضاً ، و هي في غالب استعمالها تَّردُ في القرآن الكريم مصدرةً بحرفِ النداءِ .

٣- إننا لو نظرنا إلى الصيغ الواقعةِ للنداءِ لظهرَ لنا أنّها صيغ إنشائية طلبية تنسجم مع قصد النداء ،كما أنّها كانت في جانب منها صيغاً خبريةً ، و الأسلوبان متقاربان في نداءِ الأعلام ، و إنْ كانت الصيغُ الإنشائيةُ الطّلبية أكثرَ ، فقد جاءت في ستةٍ و ثلاثين موضعاً ، في حين جاءتْ خبريةً في ثلاثين موضعاً. و قد وردَ المنادى مضافا في القرآن الكريم على صورتي الإضافةِ ؛ الإضافةِ إلى الاسم الظاهرِ ، و الإضافةِ إلى الضميرِ ، فما أضيفَ إلى الاسم الظاهرِ : ابن و أخت و آل و أهل و ألو وذو و صاحب و معشر ونساء ، أما إضافته إلى الضمير فقد اقتصرت على خمسةِ أسماءٍ هي ابن و أب و ربّ و عِباد و قوم .

وقد جاء ابن مضافاً إلى أمٍّ في موضعين ، هما قوله تعالى ﴿ قال ابنَ أُمَّ إن القومَ اسْتضَعْفُونِي ﴾(٢٤) ، و قوله تعالى ﴿ يا أبنَ أُمَّ لا تأخذْ بلحيتي و لا برأسِي﴾(٢٥) .

يقول سيبويه ((وقالوا يا ابنَ أُمَّ و يا ابنَ عَمَّ ، فجعلوا ذلك بمنزلةِ اسم واحدٍ ، لأنَ هذا أكثرُ في كلامهم من يا ابنَ أبي ، و يا غلامَ غلامِي ، و قد قالوا أيضاً : يا ابنَ أُمَّ و يا ابنَ عَمَّ ، و كأنهم جعلوا الأولَ ، و الأخرَ اسماً واحداً ثم أضافوا إلى الياء كقولك :يا أحدَ عشرَ أقبلوا))(٢٦).

ويريد سيبويهِ بقولهِ : (فأنّهم جعلوا الأولَ و الآخر اسماً واحداً)و إنّ الاسمَ الواحدَ الذي نودي مضافاً إلى ياءِ المتكلمِ جاءت فيه خمسةُ وجوهٍ : أحدُها الفتح نحو :(يا قومِ و يا قومَ) و قد أضيف ابن إلى الضمير في ستة مواضع جاء فيها كلّها مصغراً قوله منها قوله تعالى ﴿ يا بني أركب معنا ﴾ .

وقوله ﴿ قالَ يا بني لا تَقْصُصْ رُؤيَاكَ على إخوتكَ ﴾ (٢٧).و لم يأت (ابن) منادى مضافاً على الضمير دون أنْ يكونَ مصغراً ، و جاء مضافاً إلى الضمير مجموعاً في ثلاثةِ مواضعَ وهي : قوله تعالى ﴿ يا بَنِيَّ إنّ الله أصطفى لكم الدينَ﴾ (٢٨) و قوله تعالى ﴿ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا من بابٍ واحدٍ﴾(٢٩) و قوله تعالى ﴿ يا بَنِيَّ أذهبوا فتَحَسَّسُوا من يوسفَ و أخيهِ﴾ (٣٠) .

و لم يأتِ منادى مضافاً إلى الضمير إلاّ في حالةِ الإفرادِ ، و فضلاً عن ذلك فقد أضيف (ابن) و هو منادى إلى اسمين ظاهرين آخرين ، هما (آدم) و (إسرائيل) ، و قد جاء معهما مجموعاً أيضاً

﴿ يا بني آدم﴾ و﴿ يا بني إسرائيل﴾ و إذا استثنينا﴿ يا ابنَ أُمّ﴾ فإننا لا نجد (ابن) مضافاً و هو في حالةِ الإفرادِ في القرآن الكريم سوى الحالةِ التي جاء فيها مصغراً كما رأينا .

و جاء (الأبُ) منادى مضافاً إلى ياء المتكلم المعوض عنها بالتاء في ثمانية مواضع [٣١] ، منها قوله تعالى ﴿ إذْ قالَ يوسفُ لأبيه يا أبتِ إنّي رأيتُ أحَدَ عشَرَ كوكباً﴾[٣٢] ،و قوله تعالى ﴿ قالتْ أحداهما يا أبتِ استَأْجِرهُ﴾[٣٣] ، و قد جاءَ مضافاً إلى ضمير جماعة المتكلمين في ستة مواضعَ ، كلّها في سورةِ يوسفَ، منها قوله تعالى ﴿ قالوا يا أبَانَا مالكَ لاَ تأمنّا على يُوسُفَ ﴾ [٣٤]، و قوله تعالى ﴿ فقولوا يا أبانا إنّ ابنَكَ سَرَقَ ﴾ [٣٥] .

و جاءت (أخت) منادى مضافاً في موضعٍ واحدٍ ، و هو قوله تعالى﴿ يا أُخْتَ هارونَ ما كان أبوك آمرأ سَوْءٍ﴾ [٣٦]و جاء (آل) منادى مضافاً في موضعٍ واحدٍ أيضاً، و هو قوله تعالى ﴿ اعْملوا آلَ داودَ شُكْراً ﴾ [٣٧]و فضلاً عن ذلك فقد قرئ قوله تعالى﴿ أدخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشَدَّ العذابِ ﴾ [٣٨] بوصل همزة الفعل على إنه أمرٌ في الفعل الثلاثي،فيكونُ (آل) منادى مضافاً إلى فرعون على هذه القراءة ، و هي قراءة سبعية قرأ بها عاصم[٣٩] كما قرأ بها الحسن البصري في غير السبعةِ[٤٠] .

و جاء (أهل)منادى مضافاً على الكتاب في أثنى عشر موضعاً منها قوله تعالى ﴿ يا أهلَ الكتاب لِمَ تُحاجُونَ في إبراهيمَ ﴾[٤١] و قوله تعالى﴿ يا أهلَ الكتابِ قَدْ جاءَكُمْ رسلنا﴾[٤٢] و جاء مضافاً إلى يثرب في موضعٍ واحدٍ ، هو قوله تعالى﴿ يا أهلَ يثربَ لا مقامَ لكُمْ فارجِعوا﴾[٤٣] .

فأهل البيت وردت في موضعٍ واحدٍ و هو قوله تعالى﴿ إنّما يريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرجسَ أهْلَ البيتِ﴾ [٤٤] .

و جاء (أولو) منادى مضافاً إلى الألبابِ في أربعةِ مواضعَ منها قوله تعالى ﴿ و لكم في القصص حياةٌ يا أُولي الألبابِ﴾ [٤٥]و أضيفَ إلى الأبصارِ في موضعٍ واحدٍ في قوله تعالى﴿ فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأبْصَارِ﴾ [٤٦] .

و جاء (صاحب) منادى مثنى مضافاً إلى السجن في موضعين هما قولهُ تعالى﴿ يا صَاحِبيَ السجن أ أرْبَابٌ مُتَفرقُونَ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهّارُ ﴾ [٤٧] ، و قوله تعالى﴿ يَا صَاحِبَي السّجن أمّا أحدُكُما فيَسقِي ربَّهُ خَمراً ﴾[٤٨] .

و جاء (معشر) مضافاً في ثلاثةِ مواضعَ ، جاء فيها كلّها مضافاً إلى الجن ، و هي : قوله تعالى ﴿ يا مَعْشَرَ الجِّن قَدْ استَكْثَرْتُمْ مِنَ الإنس﴾ [٤٩] و قوله تعالى﴿ يا معشرَ الجِّن و الإنس ألَمْ يأتكم رسول منكم﴾[٥٠] و قوله تعالى﴿ يا معشرَ الجِّن و الإنس إنّ استَطَعْتُمْ أن تَنْفُذوا﴾ [٥١] .

وجاءَ الجمع (نساء) منادى مضافاً في موضعٍ واحدٍ ، و هو قوله تعالى﴿ يا نِسَاءَ النّبيّ لَسْتُنَّ كأحدٍ من النساءِ﴾ [٥٢] .

أمّا (ربّ) فقد جاءَ مضافاً إلى ياءِ المتكلمِ في خمسةٍ و ستينَ موضعاً ، جاء فيها كلّها محذوفَ حرفِ النداءِ ، و محذوفَ الضميرُ الذي هو ضميرُ المضافِ إليهِ و منها قوله ﴿ و إذْ قالَ إبراهيمُ رَبِّ اجْعلْ هَذا البلدَ آمِناً﴾ [٥٣] ، و قوله تعالى﴿ و قال ربِّ إنَّي دَعَوْتُ قَوْمي ليلاً وَ نَهَاراً﴾ [٥٤] .

ومعروف أنّ حرف النداء يستعان به إذا كان المنادى بعيداً ، و على هذا يكون حذفه دليلاً على قربه (و لا يكاد يستخدم حرفُ النداءِ مع الربِّ ، بل ينادى مجرداً من حرف النداء ، و لعل في ذلك تعبيراً عن شعور الداعي بقربهِ من ربِّهِ)[٥٥] .

و قد ورد (ربُّ) مضافاً إلى ضمير جماعة الداعين في قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ منا﴾ و قوله تعالى﴿ رَبَّنَا و اجعلنا مسلمين لك﴾[٥٦] في مواضع كثيرةٍ في القرآن الكريم ، و قد حذف منها جميعاً حرفُ النداءِ ، و لم يُحذفِ الضميرُ ، و لا سبيلَ إلى حذفهِ ، إذْ لا دلالة عليهِ عندئذٍ ، بخلاف المضاف إلى ياءِ المتكلم ، فإنّ الكسرةَ تدلُ عليهِ .

قد جاء (عبادُ) منادى مضافاً إلى الضمير في ثلاثةِ مواضعَ ، و استغنى فيها جميعاً بالكسرةِ عن ذكرهِ ، و هي قوله تعالى ﴿ قُلْ يا عبادِ الذينَ آمنوا اتقوا ربّكُمْ﴾[٥٧] و قولُه تعالى﴿ يَا عِبَادِ فاتّقُون﴾ [٥٨] و قوله تعالى ﴿ يا عبادِ لا خَوْفٌ عليكُمُ اليومَ و لا أنْتُمْ تَحزَنُونَ﴾[٥٩] .

وجاء (قومٌ) منادى محذوفاً منه الضمير أيضاً في سبعةٍ و أربعينَ موضعاً ، منها قوله تعالى ﴿ يا قومِ إنكم ظلمْتُمْ أنْفُسَكُمْ﴾ [٦٠] ، و قولُه تعالى﴿ قالَ يا قومِ اتَّبعُوا المرسلينَ﴾ [٦١] .

و من الجدير بالملاحظةِ أنّ حرفَ النداءِ لم يحذفْ مع يا (قوم) و (يا عبادِ) مما يرجح التفسير الذي ذكر لحذف ِحرفِ النداءِ مع (ربّ) ، و هو دليلُ على قربِ الداعي من ربِّهِ ، إذْ هو ما يتطلبُهُ ليكونَ جديراً بالاستجابةِ لهُ ، و ذلك غير مطلوبٍ بهذا القدر حينما يكون النداءُ في (يا عباد) و(يا قوم) فاقتصر فيهما على حذفِ الضميرِ، لأنَّ الكسرةَ مع النداءِ تغنينا عن ذكرهِ .

و قد كثُرَ نداءُ الاسمِ المحلى بألْ في القرآن الكريمِ ، حتى بلغَ مائتين و خمسينَ مرةً ، و جاءَ التابعُ الذي هو المنادى في الأصلِ في هذا الأسلوبِ مفرداً أوْ جمعاً ، فمن المفردِ ﴿ يا أيُّها النبيُ﴾ و﴿ يا أيُهَا المزملُ﴾ و﴿ يا أيُّهَا المدثرُ﴾ و﴿ يا أيُّهَ الساحرُ﴾ و﴿ يا أيُّها العزيزُ﴾ .و من الجمع﴿ يا أيُّها الرسلُ﴾ و﴿ أيُّها المُرْسَلُونَ﴾ و﴿ أيُّهَا المجرمونَ﴾ و﴿ أيُّهَا الجاهلونَ﴾ و﴿ أيُّها الضالونَ﴾ و﴿ يا أيُّهَا الكافرونَ﴾.

و قد جاءَ متبوعاً بما يدلُّ على الجماعةِ ، و هو الملأ في خمسةِ مواضعَ ، منها قوله تعالى ﴿ يا أيُّهَا الملأُ أفتُوني في رُؤْيَايَ﴾[٦٢] ، و قوله تعالى ﴿ قالَتْ يا أيُّها الملأُ إنِّي أُلقِيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ﴾ [٦٣] ، و في هذه المواضعَ كلِّها يأتي النداءُ صادراً من مالكِ الأمرِ إلى حاشيتهِ ، وفي معاجمنا (الملأ الأشرفُ من القومِ و وجوهُم و رؤساؤهُم و مقدموهم الذين يرجع إلى قولهم و العليةُ)[٦٤] ، و قالَ الزمخشريُ (و قامَ بهِ الملأُ و الأملاء و الأشرافُ الذين يمالؤون في النوائبِ)[٦٥] .

وقد جاءَ المفردُ دالاً على الجنس كلّه بهذا الأسلوبِ من النداءِ في موضعين ، و كان فيهما (الإنسانُ) هو التابعُ المقصودُ بالنداءِ ، و هما قولُه تعالى ﴿ يا أيُّهَا الإنسانُ ما غَرّكَ بربكِ الكريمِ ﴾ [٦٦] . و قوله تعالى﴿ يا أيُّها الإنسانُ إنّكَ كادحٌ إلى ربِّكَ كدحاً فمُلاقيهِ﴾ [٦٧] .

ولا ريب إنّ الإنسانَ هنا مقصود بهِ الناسَ جميعاً ، و قد جاءَ الناسُ تابعاً لأيُّها في ثمانيةِ عشرَ موضعاً ، منها قوله تعالى ﴿ يا أيُّها الناسُ اعبدوا ربكُمُ الذي خلقكُمْ﴾ [٦٨] و قوله تعالى﴿ يا أيُّها الناسُ إنّما بَغيُكُمْ عَلَى أنْفُسِكُم﴾ [٦٩] و قد عقب الزمخشري على هذا الضرب من النداءِ بقولهِ (و بلغنا بإسناد صحيحٍ عن إبراهيمَ بن علقمة أنّ كلَّ شيء نزل فيه يا أيُّهَا الناسُ فهو مكيٌ ، و يا أيُّها الذين آمنوا فهو مَدَنيٌ ، فقوله﴿ يا أيُّهَا الناسُ اعبدوا ربَّكُمْ خطابٌ لمشركي مكّة﴾ [٧٠] .

والغريبُ في الأمرِ أنّ هذه الآية التي استدل بها الزمخشري تعقيباً على ما روي عن ابن علقمة هي الآية الحاديةُ و العشرونُ من سورةِ البقرةِ ، و هذه السورةُ كلهّا مدنيةٌ عدا قوله تعالى ﴿ و اتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى اللهِ ثُمَّ تُوفَّى كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [٧١] و هي إحدى الآياتِ الستِ التي تنتهي بها هذه السورة و ذلكَ مثبتٌ في مستهلِ سورةِ البقرةِ بَعْدَ عنوانها .

وقد جاءَ التابعُ اسمَ موصولٍ مفرداً في موضعٍ واحدٍ ، و هو قولـه تعالى﴿ يَا أيُّها الذّي نُزِّلَ عليهِ الذِّكْرُ إنَّكِ لَمَجنُونٌ﴾ [٧٢] .

و لم يأتِ على هذه الصورةِ للمؤنثةِ في القرآن الكريمِ إذْ ليس فيه (يَا أيَّتُها التي)و قد جاءت (أيَّتهُا) المؤنثة متبوعة بالنفسِ في موضعٍ واحدٍ ، و هو قولُه تعالى ﴿ يا أيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ ارجِعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً﴾ [٧٣] .

و جاءَ للجمع (يا أيُهَا الذينَ) على صورتين : الأولى جاء فيها النداءُ موجهاً إلى الذين آمنوا ، و الثانية اتجه فيها النداءُ إلى الذينَ هادوا ، و قد ورد ﴿ يا أيّها الذين آمنوا ﴾ في مائه و واحد و تسعين موضعاً ، في حين جاءت الثانية في ﴿ يا أيُّها الذّين هادوا ﴾ في موضعٍ واحدٍ كقوله تعالى ﴿ يا أيُّها الذّين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ اللهِ ﴾ [٧٤] .و يعلل الزمخشري كثرة ورود (يا أيُّها الذينَ آمنوا)في القرآن

على هذا النحو ((فإن قلت لِمَ كثر في كتاب اللهِ النداءُ على هذه الطريقةِ ما لم يكثر على غيره؟قلتَ لاستقلالهِ بأوجه من التأكيدِ و أسبابِ المبالغةِ ؛ لأنّ كلّ ما نادى الله له عبارة عن أوامره و نواهيهِ و عظاتهِ و زواجرهِ و وعدهِ و وعيده و اقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم و على غير ذلك مما أنطق به أمورٌ عظام و خطوب جسام ، و معان عليهم أن يتفطنوا لها و يميلوا بقلوبهم و بصائرهم إليها ، و هم عنها غافلون، فاقتضت الحال أن ينادوا با لآكدِ و الأبلغِ)) [٧٥] .

ومن الجدير بالملاحظة أنّه لم يرد في القرآن الكريم (يا أيُّها الذين كفروا) و إنما جاء النداء الموجه إلى هؤلاء بصيغة اسم الفاعل﴿ قُلْ يا أيُّها الكافِرونَ ﴾[٧٦]

و في موضعٍ واحدٍ فقط ، و لم يأت ﴿ يا أيها المؤمنونَ﴾ إلا في موضعٍ أيضاً و هو قوله تعالى﴿ و توبوا إلى اللهِ أيُّها المؤمنون ﴾ [٧٧] في حين ﴿ يا أيُّهَا الذينَ آمنوا﴾ جاء في مائه و واحد و تسعين موضعاً كما ذكرنا .

وغالب النداء في (يا أيُّهَا) في القرآن الكريم موجهة للعاقل و لم يأت موجهاً لغير العاقل إلى في موضعٍ واحدٍ و هو قوله تعالى ﴿ يا أيُّهَا النملُ ادخلوا مساكِنَكُمْ﴾ [٧٨] و قد تنزلوا في هذا الخطاب منزلة العاقل ، إذ خوطبوا بالكلام مأمورين مع اشتمال الأمر على واو الجماعة . وقد جاءَ نداءُ غير العاقل في غير ذلك على صورة النكرة المقصودة في قوله تعالى ﴿ يا نَارُ كُوني بَرْداً وَ سَلاَماً على إبراهيمَ ﴾ [٧٩] و﴿ يا أرْضُ ابلعِي مَاءَكِ و يا سماءُ أقلعِي﴾ [٨٠] و قوله تعالى﴿ يا جبالُ أوبّي مَعَهُ والطيرَ﴾[٨١] وقد جاء نداءُ المصدرِ مؤدياً دلالة الإفصاح عن مشاعر الفرح أو الندم أو العجبِ ، وغيرها .نودي من هذا الضرب ينحصر في أربعة مصادر هي : البشرى و الأسف و الحرة و الويلُ ، و جاءت البُشْرَى منادة في قوله تعالى ﴿ يَا بُشْرَى هذا غُلاَمٌ﴾[٨٢] و البشرى مصدر مثل الرجعى [٨٣] .

و جاء الأسفُ منادى في قوله تعالى ﴿ يا أسفى على يوسفَ وابيَضَّتْ عَينَاهُ من الحُزْنِ ﴾ [٨٤] إظهاراً لشدتهِ ، و المصدرُ مضاف إلى ياءِ المتكلم و أصله يا أسفي ، و من وجوه الإضافة إلى ياءِ المتكلم المعروفةِ قلبُ الياءِ ألفاً .

ومثله (يا حسرتا) ، في قوله تعالى ﴿ أنْ تقولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى على ما فَرَّطْتُ في جُنْبِ اللهِ ﴾ [٨٥] .

يقول أبو جعفر النحاس (و الأصلُ يا حسرتي أي يا ندمي فأبدل من الياء ألفا لأنها أخفُ فالفائدةُ في نداءِ الحسرةِ إنّ في ذلك معنى أنها لازمةٌ موجودةٌ فهذا أبلغُ من الخبرِ) [٨٦].

جاء المصدر (الحسرةُ) منادى مضافاً في قوله تعالى ﴿ و حَتَّى إذا جاءَتْهُمُ الساعةُ بغتةً قالوا يا حَسْرَتَنَا على ما فَرَّطْنَا فيها﴾ [٨٧] ، و فضلاً عن ذلك فقد جاء هذا المصدر منادى غير مضاف في قوله تعالى ﴿ يَا حَسْرةً على العبادِ مَا يأتِيهِمْ من رَّسُولٍ إلاّ كانوا بهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [٨٨] .

و ذكر النحاس أنّ الزجاج كان في حيرةٍ من مناداةِ الحسرةِ كغيره من النحاة و لكن النحاس يوجه تلك الحيرة بقوله : (إنّما قال هذا ؛ لأن السؤال منه أن يقالَ : ما الفائدة في نداء الحسرة ؟) .

يرد أبو حيفر بشرح سيبويه لهذه المسألة أحسن شرح – و مذهبه أن المعنى إذا قيل:بإعجباه بمعنى باعجب هذا من أيامك و من أوقاتك التي يجب أن تحصرها[٨٩] . اختلف النُحاة و القُراء في منادة (حسرة) إذْ يرون فيها وجهين هما: ١- أن (حسرة) منادى ، أي : يا حسرةً احضري فهذا وقتك ، و على تعلقت بحسرةٍ فلذا نصب ، مثل يا ضارباً رجلاً ، النكرة إذا كانت موصولة بشيء آخر آثرت العربُ النصب كقول الشاعر:[٩٠]

ألا يا قتيلاً ما قتيلَ بني حِلْسٍ * إذا أطرافُ الرماح من الدغسِ**

و أنشد بعضهم [٩١].

يا سيداً ما أنت من سيدٍ * موطأِ الأعقاب رحبِ الذراعِ**

وهناك وَجْهٌ آخر لتوجيه (يا حسرةً) هو أنّ المنادى محذوفٌ ، و حسرةً مصدر أي أتحسر حسرةً .

وقد قرئت هذه الآية ضمن القراءات الشاذة بحذف (على) ﴿ يا حسرةَ العبادِ﴾ أي : يا تحسيرهم ، فأضيف المصدر ‘إلى الفاعل و يجوز إضافته على المفعول أي أتحسرُ على العباد[٩٢]. و يرى أبو اسحق الحضرمي في توجيه﴿ يا حسرةَ على العبادِ﴾ من أصعب ما في مسائل القرآن من التوجيهات النحوّية [٩٣] .و لا وجه للعجب من مناداة الحسرة ، فالشأن فيها أنّها مثل : يا أسفاه ، و يا بشرى ، إظهاراً لشدة ما يدل عليه المصدر في كل منها[٩٤] .

من هذا الضرب نداء (الويل) و (الويلة) و قد جاء الأول في ستة مواضع منها قوله تعالى ﴿ يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ [٩٥] و قوله تعالى﴿ يا ويلنا قد كنا في غفلة ﴾[٩٦] .

و جاء الثاني و هو (الويلة) في أربعة مواضع منها قوله تعالى ﴿ يا ويلتي أعجزُ أنْ أكونَ مثلَ هذا الغرابِ﴾ [٩٧] و قوله﴿ يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾[٩٨] و قوله تعالى﴿ قالت يا ويلتي أ ألد و أنا عجوزٌ﴾ [٩٩] .

و النداء فيها جميعاً استحضارٌ للويل على وجه الحسرة و الندم ، و قد جاء في أحدِ هذه المواضع بعيداً عن هذه الدلالة في قوله تعالى ﴿ و امرأتهُ قائمةٌ فضحكتْ فبَشَرْنَاها بإسحاق من وراء إسحاق يعقوب * قالت يا ويلتي أ ألدُ و أنا عجوزٌ و هذا بعلي شيخاً﴾ .

فإنّ السياق يدلّ على أنّ (يا ويلتي) هنا بما سبقه من قوله تعالى﴿ فضحكتْ فبَشَرْنَاها﴾ يؤخذ و يعرف منه ادعى للتعبير عن شدة السرور المشوب بشدّة التعجب .

هذه محاولة من استنباط معاني التنزيل و الغوص في لطائفه لاستكمال أدلة الإعجاز القرآني ، فمسائل الإعراب القرآن واجب أخلاقي و ديني في ذمة المسلمين . فإعراب القرآن و التماس غرائبه شأن يعنيننا جميعاً لعلاقته بالشريعة لذا تناولنا جانباً مما جاء في القرآن يلامس باباً آخر من أبواب النحو و هو النداء .أخذنا جانباً لعل غيرنا من النحاة يتناول باباً و بهذا نستكمل ما جاء ضمناً في مصنفات النحويين الأوائل .

الهوامش :

(١) سيبويه ٢ /١٨٢

(٢) سيبويه ١٨٢/٢-١٨٣ .

٣-المقتضب للمبرد ٢٠٤/٤،وانظر الاصول لابن السراج ٣٣٠/١ .

٤- همع الهوامع ١٧٠/١

٥- أل عمران /٢٦.

٦- المائدة / ١١٤.

(٧)الأنفال /٣٢،ويقرأ(الحقّ)بالرفع على انه خبر للمبتدأ هو،انظر أعراب القراءات الشواذ /٥٩٢.

(٨) يونس /١٠ .

(٩)) الزمر /٤٦ .

(١٠) سيبويه ١٩٦/٢ .

(١١) المقتضب للمبرد ٢٥٨/٤ .

(١٢) دراسات بأسلوب القرآن الكريم – محمد عبد الخالق عضيمه ٣ / ٦٢٤

(١٣) الأنعام /٧٤ .

(١٤) المحتسب ٢٢٣/١ ، النشر في القراءات العشر ٢٥٩/٢ .

(١٥) يوسف ٧٨ .

(١٦) يوسف ٨٨ .

(١٧) تاج العروس مادة (عزّ) .

(١٨) الشعراء/١٠ .

(١٩) الصافات/ ١٠٤

(٢٠) هود /٤٢ .

(٢١) المائدة ٥٨ .

(٢٢) يوسف/٢٩ . أنظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦٣٨ .
(٢٣) يوسف/٤٦ .
(٢٤) الأعراف /١٥٠ . انظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦٣٠ .
(٢٥) طه / ٩٤ .
(٢٦) سيبويه ٢ / ٢١٤ ، وشرح الكافية للرضي الاستربادي ١ / ١٧١ .
(٢٧) يوسف/٥ .
(٢٨) البقرة/١٣٢ .
(٢٩) يوسف/٦٧ .
(٣٠) يوسف/٨٧ .
(٣١) يوسف /٤ ، ١٠٠ / مريم ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ / القصص ٢٦ / الصافات ١٠٢.
(٣٢) يوسف /٤ .
(٣٣) القصص / ٢٦ .
(٣٤) يوسف / ١١ .
(٣٥) يوسف / ٨١ .
(٣٦) مريم / ٢٨ .
(٣٧) سبأ / ١٣ .
(٣٨) غافر / ٤٦ .
(٣٩) السبعة في القراءات لأبن مجاهد ٥٧٢ .
(٤٠) إتحاف فضلاء البشر ٣٧٩ .
(٤١) آل عمران / ٦٥ .
(٤٢) المائدة / ١٥ .
(٤٣) الأحزاب / ١٣ .
(٤٤) الأحزاب /٣٣ .
(٤٥) البقرة / ١٧٩.
(٤٦) الحشر / ٢.
(٤٧) يوسف / ٣٩ .
(٤٨) يوسف / ٤١ .
(٤٩) الأنعام ١٢٨ .
(٥٠) الأنعام / ١٣٠ .
(٥١) الرحمن / ٣٣ .
(٥٢) الأحزاب / ٣٢ .
(٥٣) إبراهيم / ٣٥ .
(٥٤) نوح / ٥ .
(٥٥) في بلاغة القرآن /٩٦٨ .
(٥٦) البقرة/١٢٨ .
(٥٧) الزمر/ ١٠ .
(٥٨) الزخرف / ٦٨ .
(٥٩) البقرة / ٥٤ .
(٦٠) يس / ٢٠ .
(٦١) الزمر/١٦ . أنظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦٣٤ .
(٦٢) يوسف/ ٤٣.
(٦٣) النمل/٢٩ .
(٦٤) تاج العروس (ملأ) .
(٦٥) أساس البلاغة/ ٦٠ .
(٦٦) الانفطار/٦ .

(٦٧) الانشقاق/ ٦ .
(٦٨) البقرة/٢١
(٦٩) يونس/٢٣.
(٧٠) الكشاف ١٧٢/١ .
(٧١) البقرة /٢٨١.
(٧٢) الحجر/٦ .
(٧٣) الفجر/ ٢٧ - ٢٨ .
(٧٤) الجمعة/ ٦ .
(٧٥) الكشاف ١٧٤/١ .
(٧٦) الكافرون/١ .
(٧٧) النور /٣١ .
(٧٨) النمل/١٨ .
(٧٩) الأنبياء /٦٩ .
(٨٠) هود /٤٤ .
(٨١) سبأ/١٠ .
(٨٢) يوسف /١٩ .
(٨٣) سيبويه /٤٠/٤ ، وأنظر دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣ / ٦٣٣ .
(٨٤) يوسف /٨٤ .
(٨٥) الزمر/٥٦ .
(٨٦) إعراب القرآن للنحاس ٨٢٥/٢ .
(٨٧) الأنعام/٣١ .
(٨٨) يس/٣٠ .
(٨٩) إعراب القرآن للنحاس ٧١٨/٢ .
(٩٠) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١٠٨١/٢ .
(٩١) معاني القرآن للفراء ٣٧٥/٢ .
(٩٢) التبيان في إعراب القرآن للعكبري ١٠٨١/٢
(٩٣) أنظر بحثنا المنشور في مجلة كلية الآداب بهون رقم (١) ص٦٤ .
(٩٤) إعراب القرآن للنحاس ٧١٨/٢ .
(٩٥) الأنبياء /١٤ .
(٩٦) الأنبياء/ ٩٧ .
(٩٧) المائدة/ ٣١.
(٩٧) الفرقان /٢٨ .
(٩٩) هود / ٧١-٧٢ .